إن كل من يدرس التاريخ السياسي والثقافي بالغرب الإسلامي يلفت انتباهه اهتمام الناس، خاصتهم وعامتهم، بالتصوف وأهله، فالسلطة كانت تستدعي بعض الطوائف إلى قصورها، وتأمر شعراءها بالقول فيه، وتحث المؤلفين على الكتابة فيه، وتبني الربط والزوايا، وتزور الصوفية أحياءً، وقبورهم أمواتًا، وتجعلهم بين مستشاريها، وتُقْطعهم إقطاعات ذات بال، وتحرص على أن تحملهم معها في حركاتها... ولكنها كانت لا تستنكف عن إنزال أقسى العقوبات ببعضهم.

وقد كان لمسار تاريخ الغرب الإسلامي نحو الانحدار، لعوامل مختلفة، وتحول بنيات مجتمعه، تبعًا لذلك، أن تعززت الحركة الصوفية فتقوت الطوائف الصوفية واكتسحت الحواضر والبوادي، فبدأ شيوخه يقومون بمختلف أدوارهم، ثم سوَّلت لبعضهم النفس أن كون دويلة لم تعمر طويلاً أو دولاً استمر حكمها قرونًا.

ورغم حركات المد والجزر التي أصابت طوائفه وشيوخه، فإن شعوب الغرب الإسلامي، إلا أقلية منها، تغلغلت فيها أمثولات أبطالها ذوي الخوارق المفرجة للكروب والأزمات. للأخيار، والمدمرة المهلكة للأشرار، فآمن بهم إيمانًا. وهكذا كان يلجأ المتنازعون لفض بعض نزاعاتهم إلى الاحتكام إلى «سيدي فلان»، أو إلى الحلف في ضريح «سيدي فلان» أو «مولاي فلان». وقد لاحظ هذا

السلوك مؤرخون وأنثروبولوجيون أجانب، وكانوا مدفوعين بدوافع مختلفة، فصاغوا فرضيات، لتعليله، خلصوا منها إلى «نظريات» فأصابوا أحيانًا وأخطأوا أحيانًا، ولا شكّ أن الباحث اليقظ، الذي لم تأخذه العزة بالإثم، يستفيد من خطئهم وصوابهم.

إن هذه الظاهرة العملية النظرية التي عاشت في مناخ الأندلس، وفي مناخ المغرب، وكانت فاعلة نشطة طوال صيرورتها، وتضاربت الآراء حول تعليلها لحرِية أن يعاد النظر فيها، ولذلك صممنا على بحثها، غير أننا حصرنا مكان التحري بالمغرب الأقصى والأندلس ، وزمانه (ق ٨هـ/ ١٤م)، وإن استعنا ببعض الأمثلة من غيرهما، ورجعنا إلى ما قبل، وتجاوزنا إلى ما بعد لموضعة الفترة وموازنتها بين عنصري «الخلاف»: السابق واللاحق لإدراك «خُصُوصيتها» ومغزاها، ثم محاولة تفسير تلك «الخصوصية». وقد أدى بنا اتجاه البحث ونتائجه إلى أن نسمي محاولتنا: الخطاب الصوفي مقاربة وظيفية.

وقد احتلت تحرياتنا مساحة فصول قسمناها إلى جزأين متكاملين بالضرورة، فالأول يحتوى على أربعة فصول تناولنا فيها أسباب وجود الظاهرة الصوفية (طبيعة المجتمع المغربي، مثاقفة...) وحللنا فيها ممارسات الطوائف الصوفية، وتبيان مغزى إشاراتها، كما أبنا فيها طبيعة دور الصوفي. أي أننا في هذا القسم

استخلصنا أسس الظاهرة الصوفية ومكوناتها، وذلك دعوناه بـ «أسس وكيان»، وأما الثاني فكان بمثابة مثال عكسي، من بعض الوجوه، لتزييف ما ورد في الأول من أطروحات أو توكيدها وإثبات صحتها. وهكذا لاحظنا فيه أن المجتمع الأندلسي كان مجتمعًا مستقرًا «اندَثَرَت» فيه العصبية القبلية وصار «أمة واحدة» استبدلت بالصراع القبلي الصراع الفئوي ذا المضمون المادي والثقافي. ولكن ظروف الحروب التي كانت تَحْيَا فيها الأندلس، وطبيعة الثقافة التي كانت متغلغلة في مختلف أوساط المجتمع، جعلت النشاط الثقافي يتمحور – مع الاختزال – حول مفهومين (موضوعين): الجهاد، والاتحاد. ومن ثمة عنوناه بـ«جهاد واتحاد».

ولعله قد اتضح أننا سلكنا طريقًا يتوخى الكشف عن بنية الظاهرة الصوفية، وإيضاح عناصرها، وعلاقات بعضها ببعض ثم صياغة كل ذلك في «نسق»، على أنه «نسق» مجتمعي تتعرض بعض عناصره للانخرام، عاجلاً أم آجلاً إذا ما أحدثت ثورة في البنية التحتية. وأوضح دليل على هذا غياب بعض عناصر «النسق» الأندلسي والمدني بالقياس إلى «النسق» البدوي الذي هو النموذج. ونتيجة هذا أنه قابل للاضمحلال بحذافيره، وقابل للرجوع إلى النموذج الأمثل تبعًا لصيرورة التاريخ ووجهة صانعيه.

وكل محاولة لصياغة «تركيبية» تقوم بالضرورة، على اختزال منهجي، فتبعد بعض العناصر الثانوية مؤقتًا وتهتم أساسًا بالبنيات الدالة، وبالمقارنة بين الأشباه والنظائر، للنفوذ إلى استكناه البنية العميقة للظاهرة المدروسة ثم يأتي الاهتمام بتجلياتها المختلفة. ثم يقع التأويل، حينئذ، المبني على كل من البنيتين، العميقة والسطحية. ونعني بهذا أننا أشرنا، عابرين، لمواضيع تستحق أن تؤلف فيها كتب، ولكن هذه – فيما نظن – مرحلة ثانية ينجزها من أراد، إذا أراد أن يصحح بعض عناصر تحليلنا أو أن يدحضها.